المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: 70-71].

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى، فلله تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله، وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه.

أما بعد:

فهذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة، وعهد الدولة الأموية، وعهد السلاجقة، وقد صدر منها؛ السيرة النبوية، وأبو بكر وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، والحسن بن علي ﷺ، والدولة الأموية، ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ، وعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ودولة السلاجقة وبروز المشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، والدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ودولتي المرابطين والموحدين، والدولة الفاطمية العبيدية، والثمار الزكية للحركة السنوسيّة، وَفِقْه النصر والتمكين في القرآن الكريم، وقد سميت هذا الكتاب «عصر الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود الشهيد في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي»، وتعتبر حلقة مهمة من ضمن سلسلة الحروب الصليبية والتي نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن تكون لوجهه خالصة ولعباده نافعة، ويطرح فيها القبول والبركة، ويرزقنا حسن القصد، وإخلاص النية لوجهه العلي الكبير، ويوفقنا لإكمال الموسوعة التاريخية المستهدفة.

وهذا الكتاب يتحدث عن الزنكيين، من حيث أصول أسرتهم وعن جدهم آق سنقر ومكانته لدى السلطان ملكشاه، وسياسته الداخلية والخارجية في حلب وتولي إمارتها، وعن

نشأة عماد الدين زنكي وبزوغ نجمه السياسي ودور بهاء الدين الشهرزوري في تعيينه أميراً على الموصل، وعن أهم صفاته، كالشجاعة، والهيبة، والدهاء، والمكر والحيلة واليقظة والحذر، والذكاء، وقدرته على اختيار الأكفاء من الرجال، ووفاؤه لأصحابه، وغيرته على محارمهم، وعدله، وعبادته وهواياته، ويتحدث عن سياسته الداخلية، والنظم الإدارية والعسكرية وعلاقة عماد الدين زنكي بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، وتوسع عماد الدين في شمال بلاد الشام وإقليم الجزيرة، وعلاقته بالأكراد، كَبَني أيوب حكام تكريت، والأكراد الحميدية والعكارية، والمهرانية والبشنوية، وعلاقته بالإمارات المحلية في ديار بكر، ومحاولاته في ضم دمشق سواء بالتفاهم أم بالحصار أم بالسياسة، وتكلمت عن جهاده ضد الصليبيين، وتطرقت لحال المسلمين قبل مجيئه للإمارة، وسياسته مع الصليبيين وفتحه للحصون والقلاع، وسعيه الحثيث لتوحيد الجبهة الإسلامية وقيادتها لمقاومة الاحتلال الصليبي، وذكرت مناصرة عماد الدين لبني منقذ عندما تعرضت إمارة شيزر لمحاصرة الجيش البيزنطي والصليبي، ومواقفه البطولية في مقارعة الغزاة وأساليبه التي استخدمها ضدهم سواء نفسية أو تعبويَّة من طلب النجدة من مختلف المناطق، واستخدم سهام الحيلة والدهاء لتعميق الخلاف بين إفرنج الشام وملك الروم البيزنطي، وقد حقق نجاحاً منقطع النظير في هذا الميدان، وفي نهاية المطاف اضطر الإمبراطور البيزنطي فك حصاره عن شيزر بفضل الله ثم جهود عماد الدين العسكرية، وكانت من أهم النتائج التي أسفرت عنها هذه الحملة:

تدهور العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضد نشاط زنكي في المنطقة في السنين التالية، وقد انهمك عماد الدين بعد ذلك على إتمام خطته بتوحيد الجبهة الإسلامية، كي يكون أكثر قدرة على مجابهة الصليبيين وأشاد الشعراء بدفاع عماد الدين زنكي عن شيزر فقال ابن قسيم الحموي في مدحه:

بعزمك أيها الملك العظيم ... تَذِلُّ لك الصِّعابُ وتستقيم

ألم تر أن كلب الرُّوم لمَّا ... تَبيَّنَ أنه الملك الرحيم

فجاء يطبِّق الفلوات خيلاً ... كأنه الجَحْفَل الليل البهيم

إلى أن قال:

أيلتمس الفرنجُ لديك عفواً ... وأنت بقطع دابرها زعيم

إذا خطرت سيوفك في نفوس ... فأوّل ما تفارقها الجسوم

واستطاع عماد الدين بفضل الله ثم بجهوده الميمونة، أن ينتزع من الصليبيين إمارة الرَّها التي تأسست في الشرق الإسلامي سنة 491هـ/ 1097م بزعامة بدوين الأول، وكان

تحريرها في عام 539هـ، وقد ساعد عماد الدين زنكي عوامل عديدة في فتح الرُّها من أهمها: تنامي حركة الجهاد الإسلامي حتى عصره، وحصاد تجربة المسلمين في ذلك المجال، فلا ريب في أن التجارب السابقة أثبت أن إمارة الرُّها مرشحة أكثر من غيرها لكي تكون أولى الإمارات الصليبية المعرضة للسقوط في أيدي قادة الجهاد الإسلامي حينذاك، وقد أجهدها أمر الإغارات المستمرة من جانب أمراء الموصل خلال فترة تزيد على أربعة عقود من الزمان ـ على نحو مثل موتاً بطيئاً لها ـ إلى أن تم الإجهاز عليها في العام المذكور، ويضاف إلى ذلك براعة عماد الدين العسكرية الذي فاجأ تلك الإمارة الصليبية بالهجوم، بعد أن اطمأن الصليبيون إليه وتصوروا أنه لن يهاجم، فاستغل فرصة غياب أميرها جوسلين الثاني عنها، وَوَجَّه لها ضربته القاضية التي انتهت بإسقاطها، وهكذا أثبت ذلك القائد الكبير أنه اختار التوقيت الملائم لذلك العمل العسكري العظيم، لقد حقق عماد الدين زنكي بفتح الرها أهم إنجازاته التي قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه، وكان لهذا النصر نتائج هامة في العالمين الإسلامي والنصراني، ومن أهم تلك النتائج على الإجمال:

1 ـ تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامي وصلت سن الرشد، وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية دون أن يكون ذلك إجحاف بإنجازات القادة السابقين على زنكي لاسيما الأمير مودود بن التونتكين، وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم فإنها البداية، واليوم إسقاط الرُّها، وغداً إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل، وهذا ما حدث فعلاً ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة وإباء.

2 ـ تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية الغير شرعية لن تستمر على الأرض المسلمة، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة، لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكري الدخيل، وبالتالي عاد التجانس لمنطقة شمال العراق، ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة الروم، وكذلك بلاد فارس.

3 ـ كما أدى سقوط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الاستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق والرحم الأم، فلم يكن ذلك الغرب يسمح لامتداده السياسي والتاريخي في الشرق، أن ينهار قطعة قطعة، بل لا بد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها وإجهاز فعاليات إمارة الموصل، ومن ثم كان قيام الحملة الصليبية الثانية عام 542هـ وهي من النتائج المباشرة لإسقاط الرها، وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامي حاربوا قوى عالمية، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية، وأنهم بالفعل كانوا جزءاً من صراع قاري أو عالمي على نحو يجعل لهم مكانة بارزة في تاريخ

المسلمين، وقد مدح الشعراء الإنجاز الكبير الذي قام به عماد الدين لفتحه إمارة الرها، فقد وصف ابن الأثير جيش عماد الدين في خروجه لفتح الرُّها فقال:

بجيش جاش بالفرسان حتى ظننت البرَّ بحراً من سلاح
وألسنة من العذبات حُمْر تخاطبنا بأفواه الرِّياح
وأروع جيشه ليلٌ بهيم وغُرَّته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن قليل الصفح ما بين الصفاح
فكان ثباته للقلب قلباً وهيبته جناحاً للجناح

وهنَّأ الشاعر ابن القيسراني القاضي كمال الدين الشهرزوري بهذا الفتح فقال:

إن الصفائح يوم صافحت الرُّها عطفت عليها كل أشوس ناكب
فتح الفتوح مبشِّراً بتمامه كالفجر في صدر النَّهار الآيبِ
لله أية وقفة بدرية نُصرت صحابتها بأيمن صاحب
ظفرٌ كمال الدين كنت لقاحه كم ناهضٍ بالحرب غير محارب
وأمدكم جيشُ الملائك نُصرة بكتائب محفوفة بكتائب
جبنوا الدَّبور وقدتم ريح الصبا جُند النبوة هل لها من غالب

إلى أن قال:

وإذا رأيت الليث يجمع نفسه دون الفريسة فهو عين الواثب

وكان فتح الرها بداية لما بعدها، إذ لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكي أن يستكمل مهمته بفتح باقي المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة، فاستغل فرصة تضعضع أحوال الصليبيين في المنطقة، وقد استطاع عماد الدين أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكوّن لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي، كسياسي بارع، وعسكري متمكن، ومسلم واعٍ أدرك الخطر الذي حاق بالعالم الإسلامي من قِبَل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام، وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة! استطاع بحنكته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه دولته من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج، أي تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين، ويعتبر عماد الدين زنكي أول قائد سلجوقي قام

بتجميع القوى الإسلامية، وفق برنامج معين ليجَابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي، وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من مودود بن التونتكين سنة (502هـ ـ 507هـ) وإيلغازي وبلك الأرتقين سنة (518 ـ 520هـ)، وقد مهد عماد الدين زنكي الطريق لقادة التحرير من بعده، فلم تكن جهود ابنه نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبي، سوى إتمام العمل الذي بدأه عماد الدين زنكي وفي نفس الطريق، وبعد استشهاد عماد الدين تولى القيادة ابنه البطل الفذ والمجاهد الشهير نور الدين محمود الشهيد الملك العادل، فذكرت في هذا الكتاب سيرته وترتيبه أوضاع البيت الزنكي مع أخيه، سيف الدين غازي، واتفاقهم على توحيد الكلمة ومناصرة بعضهم البعض ضد الأعداء، وأصبح سيف الدين غازي أمير الموصل ونور الدين محمود أمير على حلب، وتوسعت في ذكر مفتاح شخصية نور الدين زنكي وشعوره بالمسؤولية، وحرصه على تحرير البلاد من الصليبيين، وخوفه من محاسبة الله له، وشدة إيمانه بالله واليوم الآخر، وقد كان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلّاب في شخصيته، فقد كان على فهم صحيح لحقيقة الإسلام وتعبد الله بتعاليمه، وتميزت شخصيته بمجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة، والتي ساعدته على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها؛ الجدية، والذكاء المتوقد، والشعور بالمسؤولية، والقدرة على مواجهة المشاكل والأحداث، ونزعته للبناء والإعمار، وقوة الشخصية ومحبته لله ومحبة الناس له، واللياقة البدنية العالية، وتجرده وزهده الكبير، حتى قال الشاعر فيه:

ثنى يده عن الدنيا عفافاً ومال بها عن الأموال زهد

وقال فيه آخر:

لا زلت تقفو الصالحين مسابقاً لهُمُ وتَطْلُعُ خلفك الأبرار

نفس السيادة زهد ملك في الذي فيه تفانت يَعْرُبُ ونزار

وتحدثت عن شجاعته التي قال الشاعر فيها:

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه كالرّمح دلّ على القساوة لينُهُ

ووراء يقظته أناة مُجرّب لله سطوة بأسه وسُكُونه

وقال آخر:

متهلل والموت في نبراته يُرجى ويرهب خوفه وعقابه

وتكلمت عن محبته للجهاد والشهادة، فقد ذكر العماد الأصفهاني فقال: حضرت عند نور الدين بدمشق - في شهر صفر - والحديث يجري في طيب دمشق وَرِقة هوائها، وأزهار رياضها، وكل منا يمدحها ويطربها، فقال نور الدين: إنما حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها. وعندما دخل الموصل وغادرها بعد عشرين يوماً سأله أصحابه: إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك أسرعت العود؟ فيجيب: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت، ويمنعني أيضاً أنني ها هنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد، وكان رحمه الله يتعرض للشهادة، وكان يسأل الله أن يحشره من بطون السِّباع، وحواصل الطير، وبينت لوحات رائعة من عبادته، فقد كان يصلي أكثر الليالي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها، ويحافظ على الجماعة، وكان كثير الابتهال إلى الله ﷻ في أموره كلها، وقد اشتهر بالإنفاق الواسع والكرم العظيم، وكانت له أوقاف في كافة مجالات الحياة الاجتماعية على المساجد والمدارس والمستشفيات، والأرامل والأيتام.. إلخ، وقد مدح الشعراء نور الدين على كرمه وجوده فقد قال أحدهم:

يا أيها الملك المنادي جوده ... في سائر الآفاق هل من معسر
ولأنت أكرم من أناس نَوَّهوا ... باسم ابن أوس واستخصُّوا البحتري
ذلّت لدولتك الرقاب ولا تزل ... إن تغز تغنم أو تقاتل تظفر

ومدحه أسامة بن منقذ بقوله:

في كل عام للبرية ليلة ... فيها تَشُبُّ النارُ بالإيقاد
لكن لنور الدين من دون الورى ... ناران: نارُ قِرى ونارُ جهاد
أبداً يصرِّفها نداه بأسه ... فالعام أجمع ليلة الميلاد
مَلِك له في كل جيد منة ... أبهى من الأطواق في الأجياد
أعلى الملوكِ يداً وأمنعهم حمىً ... وأمدهم كفاً ببذل تلاد
يعطي الجزيل من النوال تبرّعاً ... من غير مسألة ولا ميعاد

وأشرت إلى أهم معالم التجديد والإصلاح في دولة نور الدين محمود، وكيف اتخذ من عمر بن عبد العزيز ﷺ نموذجاً يقتدي به في دولته، فقد اقتنع بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي، ودورها في إيجاد وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة، وتسلمها القيادة، فللتجارب التاريخية إسهام كبير في تطوير الدول وتجديد

openkandil.com

معاني الإيمان في الأمة، ولذلك حرص على معرفة هذه السيرة المباركة كي يقتدي بها في إدارته للدولة، ولقد أتت معالم التجديد والإصلاح الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ثمارها في الدولة الزنكية ومن أهم معالم التجديد في دولة نور الدين:

1 ـ الحرص على تطبيق الشريعة:

فقد جعل من مقاليد الحكم في الدولة أداة مسخرة لخدمة الشريعة، وتطبيق أحكامها وقيمها ومبادئها في واقع الحياة، ودعا إلى تحكيم الشريعة بحماس منقطع النظير، وقال في هذا الصدد: ونحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منها قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل، وقال: نحن شحن للشريعة نُمْضي أوامرها. فقد جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا كثيراً من الحكام قبله كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته، فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه وألزم أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه. فقد أصدر أوامره إلى كافة موظفيه على الالتزام بأحكام الشرع، ومنع ارتكاب الفواحش وشرب الخمور، أو بيعها في جميع بلاده، وأسقط كل ما يدخل تحت شبه الحرام، وإزالة كل ما يندّ عن محجة الشريعة البيضاء وينحرف إلى بؤر الظلام، وكان يُنزل العقاب السريع العادل بكل من خالف أمره، وكل الناس عنده فيه سواء. وقد مدحه الشعراء فقال فيه ابن منير:

كم سيرة أحييتها عمريّة ... رفعت لها في الخافقين منار
ونوافل صيّرتهن لوازماً ... بأقلها تستعبد الأحرار
أمّا نهارك فهو ليل مجاهد ... والليل من طول القيام نهار

أيها الأخوة الكرام، يا أبناء الإسلام، يا مَن همهم النهوض الحضاري لهذه الأمة الجريحة، علينا بالسعي الدؤوب في مجتمعاتنا ودولنا، حتى تأخذ الشريعة الغرّاء مكانتها وحقها من الاحترام والتقدير والتطبيق، فآثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفّذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ؛ ومن تلك الآثار: التمكين في الأرض والأمن والاستقرار والنصر والفتح المبين والعز والشرف وانزواء الرذائل، قد رأيناها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين، ودولة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ودولة يوسف بن تاشفين، ودولة محمد الفاتح وهي من سنن الله الجارية والماضية والتي لا تتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة لله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض

فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها، كما سنرى ذلك في سيرة نور الدين محمود وعصره بإذن الله تعالى.

إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا، يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه وأقام شرعه وقصد رضاه، وجعله فوق كل اعتبار، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65].

وقال الشاعر أحمد رفيق المهدوي الليبي:

فإذا أحب الله باطن عبده ... ظهرت عليه مواهب الفتّاح

وإذا صفت لله نية مصلح ... مال العباد عليه بالأرواح

2 ـ ومن معالم التجديد بناء دولة العقيدة على منهج أهل السنة والجماعة:

فقد جعل من العقيدة الإسلامية الصحيحة العمود الفقري لدولته، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة وقمع البدعة، قال عنه ابن كثير: أظهر نور الدين ببلاده السنة، وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحيّ على الصلاة، حي على الفلاح، ولم يكن يُؤذَّن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يُؤذن بحيّ على خير العمل؛ لأن شعار الرفض كان ظاهراً[1]. وكان نور الدين يتحرّى سنة النبي ﷺ في أموره كلها، ومن أعظم إنجازات دولته: إسقاط الدولة الفاطمية بمصر، وكان الفضل لله، ثم للحملات المتوالية التي أرسلها نور الدين محمود حتى خلّص المسلمين من شرورها، وأعلن تبعية مصر للخلافة العباسية السنية، وكان رأي نور الدين في الدولة الفاطمية العبيدية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي وهو يبشره بفتح مصر، وسقوط دولة الإلحاد والرفض والبدع[2] ويقول فيها: وطالما بقيت مائتين وثمانين سنة مملوءة بحزب الشياطين... حتى أذن الله لغُمتها بالانفراج، واجتمع فيها داءان: الكفر والبدعة، وتمكنّا من إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض[3]، وسيرى القارئ الكريم بإذن الله فقه نور الدين في إزالة الدولة الفاطمية في هذا الكتاب.

واستفاد نور الدين من خريجي المدارس النظامية، وتبناهم في مدارس الدولة النورية

---

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 130.

(2) المصدر نفسه.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 331.

وفتح لهم الأبواب لدعم المذهب السّنّي ومناهضة الفكر الشيعي الرافضي، وصبغ الدولة بالكتاب والسنة، ووضع مشروعاً فكرياً ثقافياً عقائدياً تربوياً تعليمياً استهدف به رعايا دولته، ولم يفرق بين علماء الشافعية، والأحناف، والحنابلة، والمالكية، وأهل الحديث وشيوخ التصوف السني، وغيرهم من أبناء الأمة، وتحرك بهم من خلال جبهة عريضة تنضوي تحت راية أهل السنة والجماعة في مقاومة الأخطار الشيعية الرافضية، وقد تحرك نور الدين في مشروعه الآنف الذكر من خلال مؤسسات المجتمع المدني، كالكتاتيب والمدارس والمساجد، والربط، وأخذ بكافة الأسباب المادية والمعنوية المعينة على تحقيق الهدف المنشود من صبغ الدولة النورية ورعايا الدولة من المسلمين بالكتاب والسنة، وقد أثمرت جهوده في بلاد الشام، وعلى سبيل المثال في حلب، فقد تسابق أمراءه وأعيان دولته وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية، حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السنية، بعد أن كانت وكراً من أوكار الشيعة الإمامية والإسماعيلية.

وقد أحصى المؤرخ عز الدين بن شداد (ت 684هـ) مدارس حلب في أيامه، فوجدها أربعاً وخمسين مدرسة موزعة بين المذاهب الفقهية الأربعة منها: إحدى وعشرون للشافعية، واثنتان وعشرون للحنفية، وثلاث للمالكية والحنابلة، وثماني دور للحديث الشريف بالإضافة إلى إحدى وثلاثين مقراً للصوفية، وقد آتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة إذ انقرض المذهب الإسماعيلي الباطني في حلب في حدود عام 600هـ، وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أخذوا يتنكرون، وبأفعال السُنّة يتظاهرون. وهذا بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين، وخلفائه الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السنية، وتعيين الأساتذة الأكفاء لها، والإنفاق عليها بسخاء حتى تراجع التشيع في هذه المدينة، وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة، وهذا يدل على أهمية التربية العقيدية والفكرية والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس.

ومما ساعد نور الدين محمود على تحقيق برنامجه الإصلاحي: أن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققته من نتائج، وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني والانتصار له.

3 ـ ومن معالم التجديد في دولة نور الدين حرصه على إقامة العدل:

فقد كان قدوة في عدله، أسر القلوب، وبهر العقول، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس، وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً قلَّ نظيره، حتى اقترن اسمه بالعدل وسُميّ: «بالملك العادل» ومدحه الشعراء على ذلك، فقد قال العماد الأصفهاني في عدله:

يا محيي العدل الذي في ظله ... من عدله رعت الأسود مع المَها
محمودُ المحمودُ مِن أيامه ... لبهائها ضحك الزمان وَقَهْقَها

4 ـ ومن معالم التجديد في دولة نور الدين اهتمامه بالعلماء:

فقد فتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم، فقدمهم على الأمراء وبذل لهم العطاء، وشجع المتميزين منهم إلى الهجرة لدولته، وقد شارك العلماء معه في الجهاد ضد الصليبيين بالكلمة والسيف والتأليف والوعظ، كما سنرى في هذا الكتاب بإذن الله.

هذا وقد طوّر نور الدين النظام الإداري لدولته، وحرص على صبغته بالصبغة الإسلامية، واعتمد في إدارته على الشورى وابتعد عن الانفراد بالقرار بشكل كبير، وقدم المصلحة العامة على الانفعالات، وكان مثالاً رائعاً في الزهد والتعفف وبذل المال في الصالح العام، وحرص على توفير الأمن للرعية وضمن لهم الحريات العامة، كحرية الرأي والمحافظة على كرامة الفرد، وأفردت مبحثاً عن النظام الاقتصادي والخدمات الاجتماعية، فبينت مصادر دخل دولة نور الدين، كنظام الإقطاع الحربي، والزكاة والخراج والجزية والغنائم وفداء الأسرى، والأموال العظيمة التي خلّفها أبوه عماد الدين، وأثر الأمانة الكبيرة التي تميز بها نور الدين وحكومته الرشيدة على خزانة الدولة، وأثر الأمن والاستقرار على انتعاش الحركة التجارية، ومساهمة الأثرياء والمعاهدات، والاتفاقات التي ألزم بها الخصوم لدفع أموال للدولة الزنكية، وتحدثتُ عن دعم الخليفة العباسي للدولة الزنكية، وأثر السياسة الزراعية والصناعية والتجارية في تقوية اقتصاد الدولة واهتم نور الدين بالشرائح المنتجة كالفلاحين، وأصحاب الأموال كالتجار، فقد حرص على إرضاء كبار التجار من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم في عمليات تجارية على أرض دولته على نحو يدعم اقتصاديات الدولة، ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها من عوائد المكوس الشرعية لا أن تذهب إلى خارجها، في وقت تصارعت فيه مع القوى الإسلامية والصليبية المجاورة، وقد وجد كبار التجار في نور الدين قوة مهيئة لنشاطهم التجاري أكثر من ذي قبل، وعندما دخل نور الدين مدينة دمشق حرص أشد الحرص على الاجتماع مع كبار التجار الدماشقة، من أجل بعث الطمأنينة في نفوسهم ولتوضيح معالم سياسته الاقتصادية المرتقبة، وقد استفاد التجار من هدنات الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس الصليبية في صفقاتهم التجارية، وكان من سياسة نور الدين الاقتصادية والمؤيدة بالشرع الإسلامي، إلغاء الضرائب، وأخذ نور الدين في تنفيذ هذه السياسة منذ فترة مبكرة، وكان حيناً بعد حين يصدر الأوامر ويعمّم الكتب والمناشير بإسقاط حشود الضرائب «اللاشرعية» التي كانت تَأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدها

الحكام، والأمراء الذين عاصروه، وكانت شعبيّته تزداد باطّراد عجيب في خط متواز مع مقادير الضرائب التي كان يأمر بإلغائها، وهدد من لا يطبق ذلك من المسؤولين: «ومن أزالها زلّت قدمه، ومن أحلّها حلّ دمه ومن قرأه أو قرئ عليه فليتمثل ما أمرنا به وليمضه مرضياً لربه ممضياً لما أمر به». وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم، ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجيء من وجوه الحرام.

وسعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه، وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير، وسعت لتغطية شتى الحاجات، ابتداء من قضايا المسكن والملبس والمأكل، وانتهاءً بقضايا الروح، ومروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والإنتاجية وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة والفكاك من الأسر، وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق كالمستشفيات والملاجىء ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث والخانات والربط والجسور والقناطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار، وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها، وحيناً خامساً عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة.

وقد لاحظتُ في دراستي لفترة الحروب الصليبية أن انتصارات نور الدين وصلاح الدين ساهمت فيها عوامل متعددة، منها على مستوى الخلافة نفسها، ومنها على المستوى الشعبي، ومنها على مستوى الوزارة، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلجوقي الأول، وكذلك الوزارة العباسية في عهد يحيى بن هبيرة الوزير الصالح والعالم الرباني. وكان الشيخ عبد القادر الجيلاني من زعماء الدعوة الشعبية والإصلاح العام في عاصمة الخلافة العباسية، فقد كانت عامّة الجماهير متعطشة إلى شخصية روحية رفيعة، تكون على تواصل بالشعب وطبقاته وجماهيره، تؤثر في المجتمع بدعوتها ومواعظها وتزكيتها، وتوقظ في النفوس الإيمان وتحي فقه القدوم على الله، وتحرك في القلوب الحب لله والحنين إليه، وتحث على الطموح وعُلوّ الهمة وبذل الجهد في الحصول على علم الله الصحيح وعبادته، ونيل رضوانه والمسابقة إلى سبيله، وتدعو إلى التوحيد الكامل والدين الخالص. ولقد كان هذا المصلح الكبير في شخص الشيخ عبد القادر الجيلاني، واستطاع أن يؤسس مدرسة ساهمت مع الزنكيين في تحمل المسؤولية ومواجهة التحديات العقائدية والفكرية والاقتصادية، والاجتماعية، وساهمت في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية، وقد استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود من سبقوه

وتعاليمهم وخصوصاً الإمام الغزالي الذي قام بدور عظيم في تاريخ الإصلاح والتجديد، وحوّل تلك التعاليم إلى مناهج مبسطة يفهمها العامّة وطلاب العلم والعلماء، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهجاً متكاملاً يستهدف إعداد الطلبة والمريدين روحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوفر لهذا المنهج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم: «الشيخ عبد القادر» حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية، ويقيم الطلبة والمريدون، فالتحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبقه الشيخ عبد القادر الجيلاني يكشف عن تأثير كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي[1].

وتعتبر تعاليم الشيخ عبد القادر ومدرسته ذات أثر ملموس ساهم في نهوض الأمة في عهد الزنكيين والأيوبيين، وكان الشيخ عبد القادر على أصول منهج أهل السنة في الأصول والفروع، وكانت له جهود مشكورة للتصدي للمذهب الشيعي الرافضي، وإعداد الأمة للجهاد ضد الصليبيين الغزاة، وقد أثنى ابن تيمية على الشيخ عبد القادر، واعتبره من أئمة الصوفية والمشايخ المشهورين الذين كانوا على الصراط المستقيم، وإنه من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي وشهد له بأنه من الشيوخ الكبار[2]، ثم شهد له أنه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشريعة الغراء بالتزام الشرع والأمر والنهي، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية[3].

وفي الفصل الأخير من الكتاب تحدثتُ عن سياسة نور الدين الخارجية، وعلاقته مع الخليفة المقتفي لأمر الله والوزير يحيى بن هبيرة، والخليفة المستنجد بالله، ثم المستضيء بالله، وتكلمت عن جهود نور الدين وأخيه سيف الدين في التصدي للحملة الصليبية الثانية، وحمايته لدمشق من الغزاة وأهم نتائج تلك الحملة، وعن سياسته في ضم دمشق، وكيف تعامل مع القوى الإسلامية والأُسر الحاكمة في بلاد الشام والجزيرة والأناضول، وعن سياسته تجاه القوى المسيحية، وعلاقته مع مملكة بيت المقدس، وإمارة الرها، وأنطاكية وطرابلس، وعن المعارك التي خاضها والحصون التي فتحها، وعن علاقته بالإمبراطورية البيزنطية، واستخدامه لفقه السياسة الشرعية في زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس وأنطاكية ضده، وحتى لا يجعل دولته بيت عَدُوّين: الصليبيين في الجنوب، والبيزنطيين في الشمال، واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية. ومعلوم أن البيزنطيين كان لهم باعهم الطويل في شأن الدبلوماسية، وكذلك الحال بالنسبة للدولة النورية

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 339.

(2) فتاوى ابن تيمية (10/ 463).

(3) المصدر نفسه (10/ 488).

التي اتصلت دبلوماسياً بالعباسيين والفاطميين ومملكة بيت المقدس الصليبية، أي بكافة القوى الكبرى في المنطقة سواء الإسلامية أو المسيحية، والملاحظة المهمة في فقه نور الدين جهده الكبير في المفاوضات مع الاستعداد العظيم لحشد الجيوش، واستنفار الأمة للتصدي. ولقد استطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق إسفين بين التحالف البيزنطي والصليبي، وهذا لم يأتِ بدون دفع ثمن وإنما لتنازلات غير عادية، فقد اتخذ نور الدين خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية، فلعلم نور الدين محمود الحالية والمرحلية ضد الصليبيين، وليست ضد البيزنطيين، فإنه وازنَ بين الإطاحة بمشروعه الكبير على يد الحملة الصليبية البيزنطية، وبين الوقوف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الأخير، علماً بأن سلاجقة الروم في تلك المرحلة كانوا كالدولة المستقلة، ولم تندمج في مشروع نور الدين، بل كانت تعتدي على حلفاء الدولة الزنكية وأملاكهم، واستطاع نور الدين إيقاف الحملة بعد عقد معاهدة بين الدولة النورية والإمبراطورية البيزنطية، وكان من أعظم النتائج التي ترتبت على هذه الخطوة: حفظ المشروع الإسلامي النوري من التصدع، أو الضعف، أو الزوال، وما كان للدبلوماسية النورية أن تنجح لولا الله ثم مساندتها بقوة عسكرية ضاربة استطاعت مواجهة التحالف العسكري البيزنطي، الصليبي ومعه الأرمن في معركة حارم عام (559هـ/ 1164م).

إن مقاومة الغزاة تحتاج لمشروع نهضوي على أصول الإسلام الصحيح، من عقيدة سليمة، ومرجعية واضحة تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدي الخلفاء الراشدين، له القدرة على استيعاب طاقات الأمة، وعلى رأس ذلك المشروع قيادة ربانية واعية تستطيع أن تستفيد من إمكانيات الأمة، وتستوعب فقه المبادرة كي تفجر طاقاتها وتوجهها نحو التكامل، لتحقيق الخير والغايات المنشودة، فيأتي دور القيادة لتربط بين الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات، وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها وفق رؤية نهوض شاملة تتحدى كل العوائق، وتسد كل الثغرات التي تحتاجها الأمة في النهوض، وتبث روح الأمل والتفاؤل بين الناس، وتحضهم على التمسك بعقيدتهم وقيمهم ومبادئهم، والترفع عن حطام الدنيا وإحياء معاني التضحية وشحن الهمم، وتقوية العزائم، في نفوس النخب والجمهور العريض في الأمة، وتأخذ بها رويداً نحو الأهداف المرسومة لمشروع النهوض، وعلينا أن نتذكر قول الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: 104].

هذا وقد تحدثت عن التفكير الإستراتيجي عند نور الدين، وأهمية صلاح أُولي الأمر في نجاح المشروع المقاوم للتغلغل الباطني والغزو الصليبي، وعن الإستراتيجية العسكرية لنور

الدين، كالتركيز على النوعية والفاعلية، والتعبئة العامة للأمة وإنهاك العدو واستنزاف قوّاته، وتطبيق نور الدين لمبادئ الحرب الأساسية، كتحديد الهدف، والعمل التعرضي، والقدرة على الحشد والمناورة، ووحدة القيادة وعنصر المفاجأة، ودور الاستخبارات، ومبدأ التقرُّب غير المباشر، واستخدامه للحرب النفسية في رفع معنويات الأمة، وإضعاف همم العدو.

وأفردت المبحث الأخير عن فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية، فوضحت جذور الشيعة الإسماعيلية، ونشأة الدولة الفاطمية، وتكلمت عن جرائمها في الشمال الأفريقي، كغلو بعض دعاتهم كعبيد الله المهدي، وتسلطهم وظلمهم وتحريمهم الإفتاء على مذهب الإمام مالك، وإبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة، ومنع التجمعات، وإتلاف مصنفات أهل السنة، ومنع علماء أهل السنة من التدريس، وتعطيل الشرائع وإسقاط الفرائض، وإزالة آثار خلفاء السنة، ودخول خيولهم المساجد.

وتحدثت عن أساليب أهالي الشمال الأفريقي في مقاومة الفكر البدعي الشيعي الرافضي المنحرف عن الكتاب والسنة، كالمقاومة السلبية، والمقاومة الجدلية، والمقاومة المسلحة، والمقاومة عبر التأليف، ومقاومة شعراء أهل السنة، وأشرت إلى انتقال المعز لدين الله الفاطمي من الشمال الأفريقي ودخوله مصر، لكي يتخلص من المقاومة والثورات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة في الشمال الأفريقي لمدة خمس عقود متتالية رافضين المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي الباطني، معلنين عقائد الإسلام الصحيح، فاستفاد المعز لدين الله الفاطمي من ضعف الحكم الأخشيدي التابع للدولة العباسية، فرمى بسهامه المسمومة، ودفع إليها جيوشه المحمومة بقيادة جوهر الصقلي سنة 358هـ الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين، وجوهر الصقلي. هذا الذي بنى الأزهر الذي تم بناءه سنة 361هـ ليكون محضناً لإعداد دعاة المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي.

وبعد الانتقال إلى مصر، بدأت المقاومة السنية في الشمال الأفريقي تقوى مع مرور الزمن حتى استطاع المعز بن باديس العنهاجي في سنة (435هـ) عندما تولى الحكم أن يطهّر الشمال الأفريقي من الشيعة الرافضة وبدأ في حملات تطهير للمعتقدات الباطنية، ولمن يطعن ويسب أصحاب رسول الله، وأوعز للعامة وجنوده بقتل من يُظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر ﷺ فسارع أهل السنة في الشمال الأفريقي للتخلص من الشيعة الرافضة الإسماعيلية وتصفيتهم من المعتقدات الفاسدة في ملحمة من ملاحم الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأشرت إلى جهود السلاجقة في حماية العراق وبلاد الشام من التشيع الرافضي، ودور المدارس النظامية في الإحياء السني، وتقليص المد الشيعي الرافضي، وإعداد الكوادر اللازمة لقيادة حركة المقاومة ضد الغزاة الصليبيين، وبينت جهود نور الدين السياسية والعسكرية والفكرية للقضاء على الدولة الفاطمية، وقد تمّ ذلك على يدي صلاح الدين الذي

تدرج في إلغاء الخلافة الفاطمية وفق رؤية إستراتيجية وضعها القاضي الفاضل بالتعاون مع القيادة النورية وقد تمّ بيانها في هذا الكتاب.

إن من الدروس المهمة من هذا الكتاب معرفة المشاريع المتصارعة في عهد الزنكيين، فقد كانت ثلاثة تتطاحن على قدم وساق، وهي المشروع الصليبي والذي تتزعمه الكنيسة من عهد أوربان الثاني، والمشروع الشيعي الرافضي بقيادة الدولة الفاطمية بمصر، والمشروع الإسلامي الصحيح وحامل لوائه نور الدين زنكي، فكانت المحاور التي سار عليها أهل السنة دولة وشعباً، تعميق الهوية العقائدية السنية والإحياء الإسلامي الصحيح في نفوس الأمة، والتصدي لشبهات المذهب الشيعي، وإعداد الأمة لمقاومة الصليبيين، وكانت المحاور متداخلة من حيث السير، إلا أن تحرير بيت المقدس والقضاء على الصليبيين في معركة حطين لم يتم، إلا بعد القضاء على الدولة الفاطمية سياسياً وعسكرياً، وقد سبقها الانتصارات العقائدية والفكرية والثقافية والتاريخية والحضارية للمذهب السني.

إن الذين استطاعوا تحرير بيت المقدس، وانتزاع المدن والقلاع والحصون من الصليبيين، هم الذين تميزوا بمشروعهم الإسلامي الصحيح، وعرفوا خطر المشاريع الباطنية الدخيلة، فتصدوا لها بكل حزم وعزم.

وعلى كل من يتصدى لقيادة الأمة في المواقف السياسية والتصريحات الإعلامية، عليه أن يدرس كتاب ربه وسنة نبيه وهدي الخلافة الراشدة، وحركة التاريخ الإسلامي، وحقيقة الصراع بين هذه المشاريع المتباينة، كي يساهموا في توعية الأمة، وإزالة الجهل عنها ومعرفة أعدائها.

إن ما يحدث في العراق ولبنان من صراع بين المشروع الصليبي والصهيوني والإيراني الشيعي، وعدم التركيز والدعم المطلوب للمقاومة الإسلامية في العراق وفلسطين، يبرهن على أن الكثير من القيادات السياسية والفكرية والشرعية والإعلامية غير مستوعبة لما حدث من صراع بين المشاريع في حركة التاريخ، ويدل على ذلك ما حدث في لبنان من صراع بين المشروع الإيراني الشيعي، والمشروع الأمريكي الصهيوني، حيث أهملت المقاومة الإسلامية العراقية السنية والمقاومة الإسلامية الفلسطينية إعلامياً وسياسياً ومادياً لصالح المشروع الإيراني الشيعي.

إن أية أمة تريد أن تنهض من كبوتها لا بد أن تحرك ذاكرتها التاريخية لتستخلص منها الدروس والعبر والسنن في حاضرها وتستشرف مستقبلها، وإيجاد الكتب النافعة في هذا المجال من الضرورات في عالم الصراع والحوار والجدال والدعوة مع اليهود والنصارى والملاحدة والعلمانيين والمبتدعة.. إلخ، وهذا يدخل ضمن سنة التدافع في الأفكار والعقائد،

obeikandl.com

والثقافات والمناهج وهي تسبق التدافع السياسي والعسكري، فأي برنامج سياسي توسعي طموح يحتاج لعقائد، وأفكار وثقافة تدفعه، فالحرف هو الذي يلد السيف، واللسان هو الذي يلد السنان، والكتب هي تلد الكتائب.

إن تجربة نور الدين محمود ثرية، وهي تجيب على الكثير من الأسئلة المطروحة على الساحة القطرية، والإقليمية والعالمية، وهذه التجربة تأتي شاهداً تاريخياً مقنعاً، تماماً كما كانت تجربة عمر بن عبد العزيز من قبله على أن الإسلام قدير في أية لحظة تتوفر فيها النية المخلصة والإيمان الصادق والالتزام المسؤول والذكاء الواعي، على إعادة دوره الحضاري والقيادي، وإخراج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، هذا وقد كانت علاقتي الروحية مع نور الدين محمود مُنذ كنت طالباً بالمدينة المنورة، حيث أنني كنت ممن تتلمذ على أشرطة الشيخ الدكتور سفر الحوالي شفاه الله من كل سوء، ومن ضمنها كان الحديث عن نور الدين محمود الشهيد في شريطين، فتعلقت بسيرة هذا القائد الفذ، وقد حث الشيخ في محاضرته طلاب العلم والعلماء على كتابة سيرته والبحث فيها، ومن هناك كانت نقطة البداية، وفي إحدى زياراتي للمدينة النبوية بعد تخرجي زرت أستاذنا وشيخنا الدكتور يحيى إبراهيم اليحيىٰ، وحدثني عن نور الدين محمود، وطلب مني أن أبحث في سيرته فإنها تستحق الدراسة على حد قوله، وازددت قناعة بالموضوع إلا أن انشغالي بالسيرة وتاريخ صدر الإسلام ومرحلة الدراسات العليا منعني من تحقيق هذا الهدف النبيل، الذي لم يغب عن ذاكرتي ووجداني، وأصبح من ضمن أهدافي الرئيسية في الحياة، ودخل في أورادي ودعواتي بأن يوفقني الله لتحقيقه، وعندما أقمت باليمن السعيد الحبيب، كان من ضمن شيوخي الذين طلبوا مني الكتابة في مرحلة الحروب الصليبية الشيخ الدكتور عبد الكريم زيدان، الذي استفدت منه كثيراً في عهد الخلافة الراشدة، ولا أنسى أبداً شيخي وأستاذي ياسين عبد العزيز اليماني الذي فتح لي بيته للحوار والنقاش، وأعطاني من وقته الثمين الساعات الطوال، وفي زيارتي للشيخ الدكتور القرضاوي حثني على الكتابة في سيرة نور الدين محمود، واعتبرها من الشخصيات التي لم تُعطَ حقها في التاريخ، وأما شيخي وأستاذي الدكتور سلمان العودة، فقد قال لي: نادراً ما تتاح الفرصة للبحث في القضايا التاريخية مثل ما أتيحت لك، فعليك بالإخلاص لله، وأن تتقيه فيما تكتب، وعندما قرأ خطتي في إعادة كتابة التاريخ، شجعني على المضي فيها، وقد استفدت من حواراتي ومناقشتي معه في الأمور التاريخية والفكرية، وكان يستقبلها بسعة صدر، وبكل أريحية كعادة الشيخ مع طلابه وتلاميذه، كما أن لأحداث العراق تأثيراً مباشراً على هذه الكتابات، وهذا جهد مقل أساهم به مع إخواني في معركة المصير، مع الاعتراف بالتقصير في حقهم ولهم مني الدعاء في ظهر

الغيب بالسداد والتوفيق، وتحرير بلاد الرافدين من الغزاة المحتلين ومن الأخطار الداخلية والخارجية، وعلينا أن نستلهم من سيرة نور الدين محمود الشهيد الدروس والعبر في حياتنا المعاصرة، وكيف نخطط لتحرير بيت المقدس من أيدي اليهود الغاصبين.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الأربعاء الساعة الثانية عشر، وثماني دقائق من تاريخ 20 شعبان 1427هـ الموافق 13/ 09/ 2006، والفضل لله من قبلُ ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أن يجعل عملي لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، ويشرح صدور العباد للانتفاع به، ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثبت إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يصله هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: 19].

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: 2].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلّابيّ

الإخوة الكرام: يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي من خلال دور النشر، وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين، والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

Mail: abumohamed2@maktoob.com

في نهاية الكتاب أضفت الخلاصة التي وصلت إليها من دراستي لعهد السلاجقة والزنكيين.